مدخل للثقافة الشعبية العربية*

–مقاربة أنثروبولوجية–

أ. قبايلي عمر

قد يكون من باب المنطق أن نبدأ بتحديد مفهوم الثقافة الشعبية وأهم مظاهرها المادية والمعنوية والسلوكية.

يعتبر مصطلح الثقافة الشعبية مصطلحا مركبا من لفظتين اثنين : الثقافة – الشعبية.

لا يمكن الاعتقاد أنّ مقاربة هذين المفهومين تعد مقاربة سهلة، فلقد تشكل المفهومان وتعانقا وترابطا في جو صاخب وعنيف من حيث الطرح المعرفي والإيديولوجي.

مفهوم الثقافة :

شكل مفهوم « الثقافة » موضوعا خصبا لدراسات أدبية ، اجتماعية ، نفسية ، أنثروبولوجية عديدة ، وتعامل كل نوع معرفي من مصطلح « الثقافة » تعاملا خاصا ومميزا ، ووفق رؤية معرفية ومنهجية خاصة ومميزة أيضا . وقد أنتجت هذه المعملات المعرفية تعريفات مختلفة لهذا المفهوم ، فجاء بعضها سهلا ، بسيطا وواضحا كما جاء البعض الآخر صعبا معقدا وغامضا ، فمنهم من قال أنّ الثقافة هي العلم ، والثقافة هي الأدب ، والثقافة هي الحضارة ، والثقافة هي الشخصية ، والثقافة هي التربية، والثقافة هي السلوك ، والثقافة هي الحرية، والثقافة هي الحياة ، والثقافة هي المجتمع، والثقافة هي الإنسان. ومنهم من توسع في التعريف واستطرد في إبراز بعض العناصر المادية أو المعنوية أو السلوكية المشكلة للثقافة كالعلامة ويسلر Wissler : Cحين يقول:«الثقافة هي كل الأنشطة الاجتماعية في أوسع معانيها مثل اللغة والزواج ونسق الملكية والإتيكيت والصناعات والفن»[1]. وفي نفس التوجه المعرفي والاجتماعي، يعرف الأنثروبولوجي ف. بواز F. Boas الثقافة قائلا: «الثقافة تظم كل مظاهر العادات الاجتماعية في الجماعة ما ، وكل الردود أفعال الفرد المتأثرة بعادات المجموعة الّتي يعيش فيها وكل منتجات النشطة الإنسانية الّتي تتحدد بتلك العادات »[2]. في حين قد توسع العلامة ر. لوي R. H. Louire في تعريف للثقافة حيث يقول: «الثقافة هي ذلك المجموع الكلي لما يكتسبه الفرد من مجتمعه– تلك المعتقدات والأعراف والمعايير الجمالية وعادات الطعام والحرف الّتي لم يعرفها الفرد نتيجة نشاطه الإبتكاري بل عرفها كتراث من الماضي ، ينتقل إليه بواسطة التعليم الرسمي وغير الرسمي »[3]

كما اتجه البعض الآخر من المهتمين بمفهوم الثقافة اتجاها غامضا مثل المفكر هير سكوفيتز Herskovits حين يقول : « تشكل الثقافة ذلك الجزء من البيئة الّذي صنعه الإنسان »[4]. في حين تعرفها العلامة ليزلي Les lie White : « الثقافة هي تنظيم خاص من الرموز »[5] – غير أنّ التعريف الأكثر شمولية والأكثر انتشارا وشيوعا في الدراسات الاجتماعية والإنسانية والأنثروبولوجية هو ذلك الّذي صنعه العالم الأنثروبولوجي ا. تايلور E. Tylor حيث يقول : « الثقافة هي ذلك الكل المركب المعقد الّذي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن ، والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى الّتي يستطيع الإنسان أن يكتسبها بوصفه عضوا في مجتمع »[6]. ومهما يكن من أمر تعدد واختلاف التعريفات ، تبقى الثقافة مادة خصبة للدراسات الاجتماعية والإنسانية وذلك لمفهومها الواسع ولفضائها الغني برموزه وبقيمه ولحضورها الدائم والمستمر في شتى الميادين فالثقافة حاضرة في كل زمان وفي كل مكان وعند كل الشعوب حيث « أنّ الإنسان في كل مكان على وجه الأرض كما يحتاج إلى الغذاء والكساء والمأوى والأمن من الهلاك ، وكما يحتاج أيضا الإشباع رغبته الجنسية ، نجد أنّ الثقافات الشعوب تتفق جميعا على تنظيم الحاجات الاجتماعية لأفراد المجتمع »[7].

وخلاصة القول فإنّ الثقافة من وجهة النظر الأنثروبولوجية هي مجمل التراث الاجتماعي . أو هي أسلوب حياة المجتمع وعلى ذلك فلكل شعب في الأرض ثقافة ، بمعنى أنّ له أنماط معينة من سلوك والتنظيم الداخلي لحياته ، والتفكير والمعاملات الّتي اصطلحت عليها الجماعة في حياتها ، والّتي تتناقلها الأجيال

المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي ، وعن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها »[8].

مفهوم الشعبية :

شكل مصطلح «الشعبية» موضوعا خصبا لعدد من الدراسات الأنثروبولوجية وتكاد تتفق هذه الدراسات حول مفهوم «الشعبية» وما يشيعه من دلالات مختلفة.

فالشعبية صفة مشتقة من مصطلح الشعب الّذي ألهمها المادة والروح من حيث الطرح اللغوي الشكلي والدلالي والرمزي. فالشعبية صفة لكل ما يصدر عن الشعب قولا، ممارسة، سلوكا وتصورا للحياة وللأشياء. ويندرج ضمن هذه الدائرة المفهوماتية لمفهوم الشعبية أيضا كل ما هو موجه للاستهلاك الشعبي سواء أكان ماديا أو معنويا.

يختلف مفهوم الشعبية عن مفهوم الشعوبية والشعبوية اللذين يستثمران في حقول ومناسبات سياسة وإثنولوجية أخرى...

وحديثنا عن مفهوم الشعبية يفرض علينا الإشارة إلى عدد من الدراسات الاجتماعية والإنسانية وكذا بعض الأطروحات العلمية الّتي ترفض استعماله – أي استعمال مفهوم الشعبية – ، وتسعى جاهدة من أجل البحث عن مصطلح البديل والمؤهل لتكفل بكل المظاهر والقضايا الّتي قد يحملها هذا المصطلح أو يشير إليها من خلال إشعاعاته المادية والمعنوية.

تعود أسباب وتعليلات هذا الرفض إلى الرأي القائل أنّ مصطلح الشعبية : «مصطلح إيديولوجي لا يجد مبررا للاستعمال والتداول إلاّ في المجتمعات الطبقية الّتي تقسم مسألة السلطة والهيمنة ومواطنيها إلى طبقة مسيطرة مهيمنة وطبقة خاضعة محكومة...ولكل من الطبقتين رؤياها وتصورها عن الواقع ، تصوغ بهما أيديولوجيتها المعروضة على واجهة الثقافية ، وفي هذه المجتمعات يصطلح على ثقافة الطبقية المسيطرة بالثقافة الرسمية ، مقابل ثقافة الطبقة المحكومة المهيمن عليها[9].

رفضت بعض هذه الدراسات استعمال مصطلح الشعبية لاعتقادها أنّه مصطلح سياسي إيديولوجي لا يمت إلى التصورات المعرفية بأية صلة.

لقد اجتهد بعض المهتمين لإيجاد مصطلح علمي أكثر وضوحا وأكثر تعبيرا عن هذا الفضاء وما يدور في فلكه من قضايا ومظاهر ثقافية مرتبطة ارتباطا عضويا بالشعب . فظهرت مجموعة جديدة من المصطلحات وحاول كل باحث إيجاد مبررات علمية لشرعية مصطلحه.

ولعلّ أهم هذه المصطلحات الّتي عمل أصحابها على التأسيس لها وترسيخ معالمها من حيث الطرح الموضوعاتي والمعرفي والمنهجي ما يلي :

- الثقافة الشفوية أو الشفهية –Culture orale
- الثقافة المحلية –Culture locale
- الثقافة الشفوية –Tradition orale

- التراث التقليدي Patrimoine traditionnel–
- الفلكلور Folklore–

غير أنّ المصطلح الأكثر شيوعا واستعمالا في الدراسات الأكاديمية وفي أكبر الجامعات والمراكز العلمية يبقى بدون منازع مصطلح الفلكلور.

يتكون مصطلح الفلكلور من لفظتين اثنتين : فولك Folk أي عامة الناس أو الشعب ولور Lore : أي المعرفة أو الحكمة لتصبح الترجمة : حكمة الشعب أو معرفة الشعب.

استعمل هذا المصطلح لأول مرة من قبل الباحث الإنكليزي وليام جون تومز في مقال نشره في جريدة " ذي أثنيوم " في شهر أوت من سنة 1846 . ولم يكشف ووقتئذ هذا الباحث عن اسمه ، وقع البحث باسم مستعار وهو امبروز ميروتون.

لقد اختار مصطلح الفلكلور عنوانا لذلك الحقل المعرفي والاجتماعي والثقافي الّذي شمل : الأساطير والخرافات والقصص الشعبية ، والنكات والأمثال والحزازير والألغاز، والترانيم والتعاويذ والتبريكات واللعنات ، والشتائم والسبات ، والإيمان والإجابات التقليدية المقننة ، والمقاهرة ، والمعايرة ، وعبارات التحية ، والوداع ، والمجاملات ، والملابس الشعبية ، والرقص الشعبي ، والمسرح الشعبي ، والفن الشعبي ، والمعتقدات الشعبية والطب الشعبي ، والموسيقى الشعبية ، والأشعار والأغاني الشعبية والمصطلحات والتشابه والاستعارات والكنايات والألقاب الشعبية وأسماء الأماكن والمواقع والملاحم الشعبية ، وما يكتب على القبور والسيارات ، والياقطات ، والجدران ، وأغاني ألعاب الأطفال ، وأغاني الكبار في تلعيب الأطفال والإيماءات والرموز والدعاء والنكات العلمية ونداءات الباعة وطرق الطبخ وأنماط التطريز وأنماط البيوت ، والأسوار وبيوت الحيوانات ، وما يقال لطرد الحيوانات أو استدعائها وما يقال عند العطس والسعال والتثاؤب والاحتفالات الشعبية في المواسم والأعياد والمناسبات المختلفة "[10].

لقد فضل بعض الدارسين المعتمين بموضوع الثقافة الشعبية مصطلح الفلكلور لشساعة فضاءاته الموضوعاتية من جهة ومن جهة أخرى لماعيته العلمية حيث اقترن اسمه بعلم جديد استطاع أن يصنع لنفسه مكانة معرفية خاصة ومميزة بجانب العلوم الاجتماعية والإنسانية وهو علم الفلكلور : « والّذي يتناول دراسة ثقافة المجتمعات وآثارها المادية في مرحلة الحضارة الّتي سبقت مرحلة التحديث المعاصرة ، حيث وجد العطاء الحضاري للإنسان من خلال ذاته المرتبطة بالجماعات الفطرية كالأسرة والمجتمع المحلي ، اللّذين يضمنان رعاية فردية للإنسان وإطاره الذاتي ، كما تشمل الدراسة الفلكلورية خبرة الإنسان الفكرية والمادية والآثار الّتي تركها في هذا المجال»[11].

أخذ علم الفلكلور في السنوات الأخيرة أول لنقول في النصف الثاني من القرن العشرين مكانته إلى جانب العلوم الإنسانية والاجتماعية وخاصة الأنثروبولوجيا حيث "بدأت هذه الأخيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية فلكلورية ، ويرجع سبب تداخل علم الفلكلور مع علم الأنثروبولوجيا في دراسة الإنسان وأعماله وثقافته وخبرته البشرية"[12].

أصبح علم الفلكلور يدرس كما يدرس علم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلى مستوى الشهادات الجامعية كافة ، وليس أدل على مدى تزايد العناية بهذا العلم من إنشاء العشرات من الجمعيات والمؤسسات والمجلات المتخصصة بمجلات الفلكلور "[13].

أولت الدول الأوربية والأمريكية اهتمام كبيرا بالفلكلور وعلم الفلكلور ، فعملت جاهدة على تدوين مادته وتصنيفها وإخراجها في كتب ومجلات ونشرها بين الناس وصيانتها من الضياع والاندثار والزوال وتفعيل ما تحتويه من قيم مختلفة واستثمارها استثمارا حيا ومفيدا لحياة الناس في شتى الميادين . كما سخرت لذلك أموالا كبيرة وخططت لذلك برامج متعددة من أجل التكفل بمواد الفلكلور تكفلا علميا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا . فبنت لذلك المراكز الضخمة والمتاحف الكبيرة ، وعقدت لذلك ونظمت الملتقيات والمؤتمرات والندوات والمهرجانات ، وسخرت لكل ذلك الوسائل التكنولوجية الحديثة والمتطورة في التسجيل والتصوير والكتابة والتدوين والصيانة والتخزين والإخراج...وقد يتساءل المرء حول دوافع هذا الاهتمام وهذا التكفل العلمي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمادة الفلكلور :لماذا كل هذا الاهتمام ؟

لقد أدركت المنظومة الفكرية الغربية قيمة الفلكلور ومظاهره المادية والمعنوية والسلوكية ، من حيث الطرح الهوياتي الحضاري والثقافي ، ومن ثمّ الاهتمام بالمادة الفلكلورية هو أولا وقبل كل شيء اهتمام بأصالة وماضي الشعب وبأصوله الحضارية والثقافية والتاريخية وبماضيه وماضي أجداده العريق والعتيق.

ولعلّ ما زاد في تفعيل الفكر الغربي لمادته الفلكلورية هو ذلك الوعي المعرفي العميق في أنّ الفلكلور هو المعادل التاريخي والحضاري والعقائدي والأيديولوجي والثقافي والاجتماعي للهوية الشعبية في أوسع معانيها.

وأنّ الحفاظ عليه وصيانته والتكفل به هو في حقيقة الأمر حفاظ على الهوية الشعبية وصيانتها وتكفل بها خوفا عليها من التمزق والتشوه والطمس والاندثار.

إنّ الفلكلور بمظاهره العديدة والمتعددة مرتبط ارتباطا عضويا بالهوية الشعبية والّتي هي في أبسط معانيها : « اسم الكيان أو الوجود على حاله ، أي الوجود الشخص أو الشعب أو الأمة ، كما هي بناء على مقومات أو مواصفات وخصائص معينة تمكن من إدراك صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشباه . والمسألة في هذه القضية تتعلق بنوعية تلك الصفات والمقومات الخصائص[14].

لقد كشفت الدراسات الاجتماعية والتاريخية والحضارية واللغوية والأدبية والأنثروبولوجية مدى قوة الترادف الدلالي والرمزي الّذي أحدثه المصطلحات : الفلكلور والهوية ، حيث يشيران ويحيلان بطريقة أو بأخرى إلى بعضها البعض.

وانطلاقا ممّا سبق ذكره ، لقد اكسب الفلكلور أهمية كبيرة في الدراسات الإنسانية والاجتماعية الّتي تهتم بأصول الشعوب وعاداتها وتقاليدها وتصوراتها الذهنية والفكرية ودلالات تخيلاتها على طقوسها ومعتقداتها . قابل الاهتمام العلمي والاجتماعي والثقافي الأوربي بالفلكلور عدم اهتمام وعدم اكتراث المنظومة الفكرية العربية بفلكلورها . حيث أنّ العرب لم يتفطنوا لقيمة الفلكلور في حياة الإنسان إلاّ مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين حيث ظهرت الإرهاصات الأولى على يد عدد قليل ومحدود جدا من الباحثين العرب الّذين بدءوا في

الاهتمام بما أسموه وقتئذ بالمأثورات الشعبية وبالتراث الشعبي وقد ركزوا هذا الاهتمام خاصة على مجال الأدب الشعبي...غير أنّ هذا الاهتمام كانت تنقصه في كثير من الأحيان الروح العلمية والمنطق العلمي..وبالتالي لم يرقى إلى مستوى تأسيس رؤية معرفية خاصة بالأدب الشعبي وقضاياه اللغوية والنصية . لقد ظل المهتمون يتحركون في الدائرة الإشكالية حول علاقة الأدب الشعبي بالأدب الفصيح ، وقراءة الأول في ضوء ما أنتجه الثاني من مفاهيم وتصورات نقدية ، لقد تناولت بالدراسة « قضية العلاقة القائمة بين الأدب الفصيح والأدب العامي ، في ضوء تكوين حضارتنا النفسي والتاريخي ، وبينوا أنّ هناك تفاعلا حيا وخلافا قائما بين الأدبين على مر العصور[15]...وما يمكن الإشارة إليه في الحديث في المنظومة الفكرية العربية وواقع وآفاق الثقافة الشعبية أنّها تخوفت من استعمال مصطلح الفلكلور كمصطلح علمي وذلك راجع بدون أدنى شك إلى ذلك الفهم الخاطئ والخطير لهذا المصطلح حيث أفرغوه من معانيه الصحيحة وأكسبوه دلالات غير علمية وغير صحيحة ليصبح عند المثقف العربي مرادفا دلاليا للفوضى وللتخلف وللهمجية وللضعف وللسذاجة . وكل قول أو فعل أو سلوك وصف ونعت بالفلكلور والفلكلورية هو في اعتقادهم ساذج ، همجي لا يستحق الدراسة والاهتمام وغير جدير بالعناية ولا يرقى إلى المستوى العلمي.

وخوف المنظومة الفكرية العربية من الوقوع في الفوضى المفهوماتية أو أن تنعت وتصنف بعض من دراساتها الاجتماعية والإنسانية الّتي اهتمت بالمادة الشعبية في الدائرة المفروضة ، الممنوعة ، المحرمة أو الساذجة ظل الدارسون العرب متمسكين محافظين على مصطلح الثقافة الشعبية الّتي تقوم أساسا على المحاور التالية :

1. أشكال التعبير الشعبي (الأدب الشعبي).
2. العادات والتقاليد الشعبية.
3. المعتقدات والطقوس الشعبية.
4. الفنون الشعبية.
5. الحرف والصناعات التقليدية.

غير أنّ الاهتمامات العربية بموضوع الثقافة الشعبية في إطارها الجزئي أو الشامل ظلت محتشمة وقليلة بل وفقيرة جدا من حيث الطرح المعرفي والمنهجي مقارنة مع ما يزخر به المجتمع العربي من مأثورات شعبية أصلية وأصلية.

امتازت بعض هذه الدراسات بالسطحية وكثرة الأحكام الّتي تفتقد إلى التأسيس العلمي والرؤية العلمية وذلك لغياب من المنظومة التربوية والبيداغوجية العربية بعض العلوم الّتي قد تؤهل الباحث العربي إلى التعامل مع الثقافة الشعبية ومظاهرها تعاملا علميا موضوعيا . ومن أهم العلوم الّتي تفتقد إليها المعارف العربية نذكر علوم الأنثروبولوجيا ، والأنثروبولوجيا والأثنوجغرافية والجغرافيا البشرية – وعلم السلالات البشرية . ولقد ظلت كثير من الدراسات العربية لمادة الثقافة الشعبية دراسات سطحية ولم ترقى بموضوعها إلى مستوى إدراك « أنّ فلكلور المجتمعات أو الثقافة الفلكلورية للمجتمع ، ترتبط برباط نفسي ووجداني عند الشعوب ، كما يقوم على

سيادة القيم الروحية والوجدانية والأخلاقية على الجوانب المادية في حياة الإنسان ، والفلكلور بعامة، يمثل عطاء النفس وعطاء الذات وعطاء الخبرة العقلية المرتبطة بالفطرة البشرية وعفويتها »[16].

إنّ السؤال الّذي يظل يضغط علينا هو ما مستقبل الثقافات الشعبية العربية ؟

ما ظل يقلقنا كثيرا في الآونة الأخيرة هو ذلك الغياب شبه كلي لتكفل بموضوع الثقافة الشعبية وعدم التفكير في مصيرها أمام شبح العولمة...وكأنّ المثقف العربي تنصل عن دوره الريادي والمسؤول ولم يعد يأبه بالمسألة الثقافية الوطنية الشاملة (الثقافة الرسمية والثقافة الشعبية) . ولم يعد يأبه أيضا بما تنسجه حوله العولمة الثقافية من خيوط عنكبوتية خطيرة والّتي تسعى جاهدة من أجل شل حركته الثقافية وقطع جذور وأصول انتماءاته والثقافية والحضارية والتاريخية.

يشغل الحديث عن التخوف من شبح العولمة فضاءا فكريا واسعا عند الشعوب حيث تعمل جاهدة وبكل طاقاتها البشرية والمؤسساتية على صيانة ذاتها وانتماءاتها الثقافية والحضارية وذلك من خلال التفعيل الحقيقي والأصيل لمظاهر ثقافتها الشعبية . كمادة أساسية وحية تطعم وتغذي بها ذاتها وكسلاح قوي تحارب به من يحاول الاعتداء على هويتها أو تشويهها أو تدميرها.

لقد أحدثت العولمة في نفسي المثقف العضوي (بمفهوم كرامشي) خوفا ورعبا كبيرين ، فهو يخاف ويخشى من أن تسقطه وترمي به في العدمية والغرابة والضياع وألّلانتماء الثقافي والهواياتي . فهو يخشى ويخاف من أن تضيع منه خصوصياته الثقافية الّتي قد لا تستطيع المقاومة والصمود أمام النموذج الثقافي الّذي تسعى العولمة إلى فرضه ، ومن ثمّ فإنّ اللذين يتحدثون عن مخاطر العولمة الثقافية المتمثلة في اختراق الخصوصية الثقافية لهذه المجتمعات لديهم من الأسباب الموضوعية ما يجعل قلقهم وتخوفهم منطقيا ، فهذه الثقافات رغم ما تملكه من مقومات ذاتية للبقاء والاستمرار ، كانت ولا تزال – قبيل بزوغ شمس العولمة – تخوض معركتها مع التحديات والتغيرات الّتي شهدتها مجتمعاتها في النصف الأخير من القرن المنصرم ، والّتي أحدثت واقعا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ونفسيا وبيئيا جديدا قلل من حيوية هذه الثقافات وجفف كثيرا من مصادرها ومنابعها "[17].

ولعلّ ما أدى بالمثقف العربي إلى أن يتحرك بعيدا ومنفصلا عن الكيان الثقافي الشعبي العربي هي تلك الرؤية الأيديومعرفية التحقيرية والمدمرة الّتي ورثتها عن المنظومة الاستعماري الّتي كانت دائما تسعى إلى طمس وتشويه الكيان الثقافي العربي الأصيل.

لقد اهتمت المنظومة الكولونيالية مبكرا بمظاهر الثقافة الشعبية العربية حيث سخرت لذلك أموالا كبيرة ووسائل ضخمة كما أوفدت إلى الميدان العربي عساكرها وإداريها ورجالاتها الدينية ، فنزلوا الميدان واختلطوا مع الشعوب العربية الأمر الّذي ساعدهم من تسجيل العادات والتقاليد العربية والمعتقدات والطقوس الشعبية والفنون التقليدية العربية وأشكالها التعبيرية العديدة والمتنوعة لقد سخرت إدارة الدول الاستعمارية لهذه المهمة طاقات بشرية معتبرة ، فطافوا في المدن والقرى والمداشر ، وحضروا في الحفلات والمواسيم الطقوسية وشاركوا العرب في أفراحهم وفي أقراحهم...

غير أنّ علاقتهم مع مظاهر الثقافة الشعبية العربي لم تقف عند حدود التسجيل والفهم والاستثمار الاتصالي التواصلي ، فسرعان ما شرعوا في تنفيذ سياستهم التغريبية التشويهية والتحنيطية حيث انحرفوا بما سجلوه من مظاهر الثقافة الشعبية العربية انحرافا خاطئا وخطيرا ، فأفرغوها من قيمها الأصلية وعوضوها بقيم غربية من وحي خطتهم ونيتهم في تشويه المسيرة الثقافية والحضارية للشعب العربي . وقطع علاقته بجذوره الحضارية والتاريخية ، فأبدعوا قيما ونسبوها إلى العقلية العربية الّتي وصفوها بالتحجر والتخلف والفوضى وعدم قدرتها على الإبداع وعلى مسايرة متطلبات العصر.

لقد اتجهت المنظومة الفكرية الاستعمارية بالثقافة الشعبية اتجاها خاطئا وخطيرا حيث أفقدها ماهيتها ودورها الريادي في الحفاظ على أصالة انتماء الشعب العربي.

ومهما يكن من أمر نشير إلى أنّ المثقف العربي البورجوازي لم يتحرر من هذه الرؤية الاستمعارية في تعامله مع مظاهر الثقافة الشعبية حيث ظل هو الآخر ينعتها بالسذاجة والتخلف والهمجية والفوضى والمتوحشة . لقد صنع المثقف العربي جدارا معرفيا وثقافيا وإيديولوجيا بين ثقافته أي ثقافة النخبة أو ثقافة المؤسسات وثقافة الشعب أو الثقافة الشعبية والّتي لم يقف عند حدود وصفها بالتخلف والضعف بل وصل به الحد إلى إقصاءها من دائرة الثقافة الوطنية ووضعها في الطرف المناقض للثقافة النخبوية وللثقافة الوطنية غير أنّ الواقع الثقافي والاجتماعي والتاريخي والإيديولوجي للبنية الحضارية والتاريخية والثقافية العربية تبين أنّ الثقافة الشعبية ليست نفيا للثقافة الوطنية ، ولكنّها تصحيح لها . وهذا التصحيح يكتسب معناه من التصحيح السياسي ، فإذا كنا نطالب بالديمقراطية ، على الصعيد السياسي ، فليس مقبولا أن نسكت عنها في الميدان الثقافي ، وإذا كنا نطالب بإسماع صوت الشعب في المجالس النيابية وأجهزة الإعلام ، فليس منطقيا أن نسكت عن المطالبة بإفساح المجال لثقافة هذا الشعب لسمع صوتها من هذه الأجهزة ، إنّ العلاقة بين الثقافة الوطنية والثقافة الشعبية إذن تتحدد من خلال مصير الديمقراطية[18].

إنّ الثقافة الشعبية مؤهلة لمواجهة مستقبل ثقافي وسياسي وإيديولوجي صعب وعنيف . فهي مرشحة لخوض مقاومة على ثلاث جبهات :

- جبهة الماضي وما ألصقه لها الاستعمار من نعوت وأوصاف خاطئة وخطيرة.
- جبهة الحاضر العربي وما يميز المثقف العربي من مواقف عدائية واحتقارية لمظاهرها المادية والمعنوية والسلوكية وإقصاءه إياها من الثقافة الوطنية الشاملة.
- جبهة المستقبل وما تريد العولمة فرضه من نماذج ثقافية على الشعوب وعلى حساب ثقافتها الشعبية وقد تشكل هذه الجبهة أخطر الجبهات لأنّ العولمة الّتي تعتبر وسائل الاتصال أحد أذرعها الهامة . الّتي أحكمت سيطرتها على كل شيء بحيث لا يستطيع الأفراد أو المجتمعات الصغيرة أو الدول الاحتفاظ بخصوصياتها معها ، إلاّ أنّ الهيمنة المحمومة جعلت الأفراد والجماعات والدول يشعرون بالقلق . فالعولمة الاقتصادية لها أثرها على الدول النامية وشعوبها على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ففي الميدان الثقافي نجد أنّ الثقافات المحلية لهذه الشعوب مهددة بأن يصيبها ضرر كبير من العولمة لعدم توفر الإمكانيات

لتقديم وحماية هذه الثقافات من الفيضان الّذي يتلقاه الفرد من خلال هذه الوسائط لنقل المعلومات وقنوات الاتصال الفضائية[19].

قد لا يتحقق هذا الأمر إذا كانت هذه الشعوب وهذه المجتمعات تمتلك القدرة المادية والمعنوية لصيانة ذاتها وكيانها الثقافي الخاص . فالعولمة لا تكتسح ولا تغزو إلاّ الثقافات والمجتمعات والشعوب الّتي افتقدت معالمها التاريخية والحضارية وتخلت عن ثقافتها المحلية الأصلية والأصيلة وتهاونت في حماية وصيانة هويتها الحضارية.

فإذا كانت العولمة كطرح اقتصادي واجتماعي وثقافي تسعى جاهدة من أجل إخضاع كل المجتمعات وكل الثقافات وكل الشعوب إلى منطق واحد وموحد فإنّ هذا لا يعني الذوبان والاستسلام لعادات الغير وتقليده ، وإنّما ضرورة العودة لثقافة وهي الوحيدة القادرة على مواجهة العولمة . فبفضلها يتحصن المرء ويأخذ جرعات المواجهة النافعة الّتي لا تعزله ولا تذيبه ، والثقافة الشعبية هي حجرة عثرة في وجه العولمة ، لأنّها تعطي لكل مجتمع عناصر التمييز من ناحية، ومن ناحية أخرى تقوى الوحدة الوطنية وذلك لتنوعها[20].

بعدما وقفنا على مفهوم الثقافة الشعبية ووظيفتها التاريخية والحضارية وواقعها الاجتماعي والثقافي نحاول الحديث عن أهم الميكانيزمات والإجراءات المنهجية والمعرفية الضرورية من أجل تفعيلها وصيانتها وحمايتها من الاندثار والزوال.

ولعلّ أهم محطة يمكن الانطلاق منها هي التفكير في مستقبل الثقافة الشعبية وفي قدرة المنظومة الفكرية العربية على التكفل بموضوع الثقافة الشعبية تكفلا علميا سليما وأمينا ، تبقى دون أدنى شك تلك المحطة المرتبطة بموقف المثقف العربي وبرؤيته لها فهو . مطالب بتغيير ذلك الموقف وتلك الرؤية والاهتمام بها كجزء ثابت لا يتجزأ من حضارة وثقافة وتاريخ شعبه العريق والعتيق . فهو مطالب أيضا بدراستها دراسة علمية لمعرفة الأصول التاريخية لشعبه وكذا أنماط تفكيره ورؤيته للحياة وللأشياء « لأنّ الشعب دائما يقدم بنفسه جوانب غير معروفة من شخصيته وكيانه ، ويعبر بنفسه عن كوامن ذاته ، ويحكى داخل مروياته ومأثوراته حقائق قد يغفل التاريخ عن ذكرها . فالفن الشعبي هو الصورة التكاملية لشخصية الشعب الّتي تعكس في إبداعه الفني ويظهر ذلك ضمن أشكال ممارسته لمأثوراته ، وفيما من احتفالات في الأعياد والمناسبات العائلية...وفي طقوس العمل وممارسة مشقة العمل...وفي السفر...أو زيارة الأماكن المقدسة وفي استقبال أيام السنة...وارتباط ذلك بعقيدته وإيمانه الديني...في صراعه من أجل تحقيق حياة أفضل ، وفي كل نشاط حي يمارسه الإنسان »[21].

غير أنّ دور المثقف العربي في تفعيل موضوع الثقافة الشعبية غير كاف ، فلا بد من تدخل المؤسسات الرسمية ومشاركتها للمثقف وذلك بالتأطير الإداري والمالي والعلمي والثقافي والبيداغوجي . وقد يتجلى دور المؤسسات في المحطات التالية.

- تشجيع الاهتمام بالمادة الشعبية جمعا وتدوينا وصيانة وإخراجا في كتب ومجلات والتعريف بها في نطاق واسع.
- تسخير الوسائل السمعية البصرية الضرورية التسجيل والتصوير.

- إنشاء المخابر العلمية والمراكز البحثية الّتي تتكفل بالمادة الشعبية تكفلا علميا بعيدا عن الأطروحات العرقية الإثنية الضيقة.
- إدراج وإدماج مظاهر الثقافة الشعبية ضمن البرامج البيداغوجية التعليمة.
- استثمار الثقافة الشعبية استثمارا سياحيا أي توفر السبل العلمية والإدارية من أجل صناعة من بعض مظاهر الثقافة الشعبية ثقافة سياحية مفيدة.
- استثمار الثقافة الشعبية استثمارا اقتصاديا أي توفير السبل العلمية والإدارية من أجل بناء اقتصاد من بعض مظاهر الثقافة الشعبية كالحرف والصناعات التقليدية.

خلاصة القول : فإنّ المؤسسة الثقافية العربية وأنّ المثقف العربي يملكان من القدرات المادية والمعرفية ما يؤهلانهما لصياغة تصور علمي وأصيل لمستقبل الثقافة الشعبية العربية في الوطن العربي من حيث المبدأ والوظيفة والفاعلية الحضارية والتاريخية والثقافية والاجتماعية والإيديولوجية . وقد يرتكز هذا التصور خاصة على القاعدة الموضوعاتية لظاهرة الثقافة الشعبية المادية والمعنوية والسلوكية وعلى الإمكانات المادية الّتي تزخر بها المؤسسات العربية وعلى الوعي الكبير والعميق الّذي أظهره عدد من المثقفين العرب في السنوات الأخيرة حين اتجهوا نحو الثقافة الشعبية اتجاها علميا لاستنطاق بعض عناصرها واستخلاص العبرة والمادة من أجل صيانة الذات والكيان والهوية...

الإحـالات

1. د. سامية حسن الساعاتي ، الثقافة والشخصية ، بحث في علم الاجتماع الثقافي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1983 ، ص 35.
2. م ن : ص 35.
3. م ن : ص 36.
4. م ن : ص 50.
5. م ن : ص 51.
6. م ن : ص 35.
7. م ن : ص 28.
8. م ن : ص 27.
9. محمد بزيكا ، " مفهوم الثقافة الشعبية بين المثقف العضوي والتقليدي " ، مجلة آفاق ،الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب ، السلسلة الجديدة ،ع، 9 يناير 1982،ص 13.
10. هيام الملقي ، ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري ، دار الشواف للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1995 ، ص 261.
11. عبد اللطيف البرغوثي : " بين التراث الرسمي والتراث الشعبي ، مجلة الصامد الاقتصادي ، العددان 67 – 68 ، السنة 9 ، آيار ، حزيران تموز ، آب ، 197 ، ص 24.
12. هيام الملقي : م.س ، ص 260.
13. هيام الملقي : م.س ، ص 25.
14. د. أحمد بن نعمان : الهوية الوطنية – الحقائق والمغالطات ، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1996 ، ص 21.
15. كلمة التحرير ، مجلة المأثورات الشعبية الصادرة عن مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون الخليج العربية ، السنة 16 ، العدد 63 ، قطر يوليو 2001.
16. محمد بزيكا ، م.س ، ص 15.
17. كلمة التحرير ، مجلة المأثورات الشعبية ، السنة 14 العددان 55 – 56 قطر يوليو – أكتوبر 1999.
18. صالح جديد ، الأشكال التعبيرية الشعبية وتحديات العولمة " مجلة المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر 2002 ، ص 75.
19. صفوت كمال ، مدخل لدراسة الفلكلور الكويتي ، ط2 الكويت ، 1973،ص 76.
20. م ن :ص 78 .